بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أرى أولياءه صراطًا يَضلّ فيه الغَطَاط، وجلّى لهم نهارًا لا يُبصر فيه الوَطْوَاط، وأسلكَهم مسالكَ لم يَرُضْها مطايا الأبصار، وفجّر لهم ينابيع ما اهتدت إليها طيور الأفكار، والصلاةُ والسلام على خاتم الرسل الذي اقتضى ختمُ نبوّته أن تُبعَث مثل الأنبياء من أمّته، وأن تنوِّر وتُثمِر إلى انقطاع هذا العالم أشجارُه، ولا تُعفَّى آثاره، ولا تُغيَّب تذكارُه، فلأجل ذلك جرتْ عادة الله أنه يرسل عبادًا من الذين استطابهم لتجديد هذا الدين، ويعطيهم مِن عنده علم أسرار القرآن ويبلّغهم إلى حق اليقين، ليُظهِروا معارف الحق على الخَلق بسلطانها، وقوّتها ولمعانها، ويُبيّنوا حقيقتها وهويّتها، وسُبلَها وآثار عرفانها، ويُخلِّصوا الناس من البدعات والسيئات وطوفانها وطغيانها، وليقيموا الشريعة ويفرشوا بساطها، ويبسطوا أنماطها، ويزيلوا تفريطها وإفراطها. وإذا أراد الله لأهل الأرض أن يُصلِح دينهم، وينير براهينهم، أو ينصرهم عند حلول الأهوال والمصائب والآفات، أقام بينهم أحدًا من هذه السادات، ويؤيّده بالحجج القاطعة والآيات، ويشرح صدور الأتقياء لقبوله ويجعل

الرجس على الذين لا يتّقون. ففريق من الناس يؤمنون به ويصدّقون، وفريق آخر يكفرون به ويكذّبون، ويقعدون بكل صراط ويؤذون، ويمنعون كلَّ من دخل عليه ولا يُخلّصون، فتهيجُ غَيرة الله لإعدامهم، لينجي عبدَه مِن اجْلِخْمامِهم، فما زال بالكافرين يُهلِك هذا ويدفع ذاك حتى تصير الأرض خالية من تلك الهَوام، ويحصل الأمن للأبرار الكرام، وتحتفل الملّة مِن نُخب الإسلام كنجوم منيرة مشرقة في الظلام. وهذا من أكبر علامات الذين يأتون من حضرة العزة والجبروت، وينزلون إلى الناسوت، ليجذبوا خلق الله إلى عالَم الملكوت واللاهوت. وإنّ الله يجلو بهم الغياهبَ، ليبتلي الخبيثين والأطائب، ويُرِي الفائزَ والخائب، فتسعد نفسٌ وأخرى تشقى، ويُحيى أخ وأخ آخر يُفنى، ويُنصَر المأمور في الأرض ويُمهَل حتى يفلّ شَبَا العِدا، ويزول الظلام وتطلع شمس الهدى.

فالحاصل أن أولياء الله لا يُهلَكون كالكاذبين، ولا يكون مآلهم كالمفترين، بل يُعصَمون ويُقبَلون ويُنصَرون ويُؤْثَرون على العالمين، ولا يُضاعون ولا يُجاحون، ويعيشون أمام أعين ربهم فائزين. وإنهم حجّة الله على الأرض ورحمة الحق لأهل الأرضين. وليست شقوةٌ في الدنيا كإنكار المأمورين، ولا سعادة كقبول هؤلاء المقبولين. وإنهم مفتاح حصن الأمن والأمان وحرزُ الداخلين، فما بال الذي

فقد هذا المفتاح وما دخل الحصن وقعد مع المخرَجين؟ وإنّ أشقى الناس رجلان.. ولا يبلغ شقاوتَهما أحدٌ من الإنس والجان: رجلٌ كفر بخاتم الأنبياء، ورجل آخر ما آمن بخاتم الخلفاء، وأبى واستكبر وأساء الأدب عليه وترك طريق الحياء، وما تأدّب مع الله وأهلِه الموعود وبلّغ التوهين إلى الانتهاء، ولو لم يتولّد لكان خيرًا له مِن سوء العاقبة وسخطِ حضرة الكبرياء، ولسوف يذوق ذواق السبّ والشتم والازدراء، وإن الساعة آتية لا ريب فيها، ثم الذين خُتمت على قلوبهم لا ينتهون، وإذا قيل لهم آمِنوا وأصلِحوا ولا تُفسدوا قالوا بل أنتم مفسدون. وحسبوا الغيَّ رشدًا، والفساد صلاحًا، فهم لا يرجعون. فكيف إذا زهقت نفوسهم وأُظهِرَ ما كانوا يكتمون؟ وإذا قيل لهم أما جاء رأس المائة قالوا بلى، فقُلْ أفلا تتّقون؟

إن مثل المؤمنين والمكذّبين كمثلِ حيّ وميت، هل يستويان مثلا؟ فبشرى للذين يُوفَّقون.

وقالوا لستَ مُرسلاً، بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه فسوف يعلمون. إن الذين صدّقوا أولئك هم المنصورون، ولا يرهق وجوهَهم قترٌ ولا ذلّة ولا هم يُفزَعون. إن الذين كفروا ما نفعهم خسوف ولا كسوف ولا آيات أخرى بل هم يستهزئون. يعرفون ثم يبخلون بما آتاهم الله من العلم، وانكشف عليهم الهدى ثم لا

يهتدون. وجَنَّ عليهم ليلٌ من التعصّب فهم فيه يُمسون ويصبحون. يرون آياتِ الله بأعينهم ثم ينكرون. وما كنتُ متفرّدًا في هذا بل ما أتى الناس مِن رسول إلا كانوا به يستهزئون، وهلمّ جـرًّا إلى مـا تشاهدون.

وإني رأيت دهرًا ظُلْمَ هؤلاء الأشرارِ في هذه الـديار، وآنـستُ غُلُوَّهم في الإنكار والاحتقار، وجرّبتُ أن لهم قلوبا سـيرتُها اللَّـدُّ والاحْرِنجامُ، وفطرةً شيمتُها التكذيب والاتّهام.

فلما يئست منهم انصرف قلبي إلى بلاد أخـرى، لعلّـي أرى الأنصار أو أجد فيهم قلبًا أتقى، فذكرتُ علماء الشام ومَن بها مـن الكرام، وأردت أن أرسل إليهم للاستـشهاد، ليُجيبـوا بالـصدق والسداد، وينقلوا الحق من الوهاد إلى النجاد، فأُخبرتُ أن المناظرات فيهم ممنوعة، والقوانين لمنعها موضوعة، فذهب وهلي بعد ذلك أن المراد يحصل مِن أرض مصر وأهلها المتفرّسين، والمخـصبين بعِهـاد العلم والمثمرين، وزعمت أن فيهم قوما يُعَدّون من المحقّقين، ومـن الأدباء المفصحين، وخلتُ أنهم من المتدبّرين، وليسوا من المستعجلين والجائرين. فقادني هذا الظنّ إلى أن أرسل إلى مدير "المنار" ورِفقتِـه كتابي "الإعجاز"، ليقرّظوا ويكتبوا عليه ما لاق وجاز، وآثرتُهم على علماء الحرمين والشام والروم، لعلّي أسرو بهم غواشـيَ الأفكـار

والهموم، ولأطفئ بهم ما بي من جمرة الأذى، وليُعينوني على البرّ والتقوى. ثم لما بلغ كتابي صاحبَ "المنار"، وبلغه معه بعض المكاتيب للاستفسار، ما اجتنى ثمرة من ثمار ذلك الكلام، وما انتفع بمعرفةٍ من معارفه العظام، ومال إلى الكَلْمِ والإيذاء بالأقلام، كما هو عادة الحاسدين والمستكبرين من الأنام، وطفِق يؤذي ويُزري غيرَ وانٍ في الإزراء والالتطام، ولا لاوٍ إلى الكرم والإكرام، كما هو سيرة الكرام، وعَمَدَ إلى أن يؤلمني ويفضحني في أعين العوام كالأنعام، فسقط من المنار المنيع وألقى وجودَه في الآلام، ووطئني كالحصى، واستوقد نار الفتن وحضى، وقال ما قال وما أمعنَ كأولي النهى، وأخلد إلى الأرض وما استشرف كأهل التقى، وخرّ بعد ما علا، وإن الخرور شيء عظيم فما بال الذي من المنار هوى، واشترى الضلالة وما اهتدى.

أم له في البراعة يدٌ طُولى؟ سيُهزَم فلا يُرى. نبأٌ من الله الذي يعلم السرّ وأخفى. إنه مع قوم يتّقونه ويحسنون الحسنى. ينصرهم في مواطن فتكون كلمتهم هي العليا. وإن الألسنة كلها لله، فيجعل حظًّا منها لمن شاء وقضى. وإن عباده المنقطعين ينطقون بروحه ولا يُعطى لغيرهم هذا الهدى. وكل نور ينزل من السماء، فما بيدكم أيها النَّوكى؟ أتغترّون بلسانكم وقد هبّت عليه صراصر عظمى؟

واليوم لستم إلا كعجميّ فلا تفخروا بما مضى. وبُدّلت ألسنُكم كلَّ التبديل فأنَّى التناوش من مكان أقصى؟ أتنسون محاوراتكم أو تخدعون الحمقى؟ وإن رسول الله وسيد الورى ما سمّى أرضكم هذه أرض العرب، فلا تفتروا على الله ورسوله وقد خاب من افترى. فدَعْني أيها الفخور من هذا وامض على وجهك، والسلام على من اتّبع الهدى.

وكنتُ رجوتُ أن أجد عندك نصرتي، فقمتَ لتندّد بهواني وذلّتي، وتوقّعتُ أن يصلني منك تكبير التصديق والتقديس، فأسمعتَني أصوات النواقيس، وظننتُ أن أرضك للتحصّن أحسنُ المراكز، فجرّحتَني كاللاكز والواكز، وذكّرتني بالنَّوش والنهش والسبعيّة نُبَذًا من أيام الخصائل الفرعونية. ولستُ في هذا القول كالمتندّم، فإن الفضل للمتقدّم. وكنتُ أتوقع أن يتسرَّى بمؤاخاتك همّي، ويَرْفَضّ بجندك كتيبةُ غمّي، فالأسف كل الأسف أن الفراسة أخطأتْ، والرويّة ما تحقّقت، ووجدتُ بالمعنى المنعكس ريّاك، فهذه نموذج بعض مزاياك، وعلمتُ به أن تلك الأرض أرضٌ لا يفارقها اللظى، وتفور منها إلى هذا الوقت نارُ الكبر والعُلى، فعفا الله عن موسى، لِمَ تركها وما عَفّى.

فحاصل الكلام أنك زعمتَ أن كتابي مملوٌّ من السهو والخطـــاء، وما أتيتَ بدليل من النحويين أو الأدباء، فأشكو إلى الله مِن جَورك هذا والافتراء، فإنك شمستَ لي مِن غير سبب ومِن غـــير أســـباب البغض والشحناء. أَوَ جعلتَ معيارَ الصحّة لسانَك الذي تكلّم بـــه عشيرتك من البنات والنساء؟ وما تصفّحتَ كتابي وغلّطتَ مفرداتِه وتراكيبَه، وخطّأتَ أفانينه وأساليبه، وأســـخطتَ حـــسيبك ومـــا خشيت تعذيبه، وكذّبتَ وأغلطت الناسَ، وخببتَ واتّبعت الخنّاس، وقلتَ كتاب مملوّ من الأغلاط المنكرة، وفي سجعه تكلّفٌ وضعف وليس من الكلم المحبَّرة، والمُلَحِ المبتكرة، ويوجد فيه ركاكة العُجمة. وحسبتُك حبيبا يريحني كنسيم الصباح، فتراءيتَ كعـــدوٍّ شـــاكي السلاح، وخلتُ أنك تهدر بصوت مبشِّر كالحَمام، فأريتَ وجهك المنكر كالحِمام.

وأعجبني حِدّتُك وشدّتك من غير التحقيق، فأخذني ما يأخـــذ الوحيدَ الحائر عند فقد الطريق، لكني أسررتُ الأمر وقلت في نفسي لعلّه تصحيف في التحرير، وما عمد إلى التوهين والتحقير، وكيـــف قصد شرًّا لا يزول سواده بالمعاذير، وكيف يمكن الجهر بالسوء مِن مثل هذا الفاضل النِّحْرير. ولما تحقّق أنه منـــك تقلّـــدتُ أســـلحتي للجهاد، وقلتُ مكانَك يا ابنَ العناد، فدوني شرطُ الحِداد وخَـــرطُ

القَتاد. وعلمتُ أنك ما تكلّمتَ بهذه الكلمات، إلا حسدًا من عند نفسك لا لإظهار الواقعات، فابتدرتُ قصدَك، لئلا يصدّق النـــاسُ حسدك، فإن علماء ديارنا هذه يستقْرون حيلةً للإزراء، فيـــستفزّهم ويُجرِّئهم عليّ كلُّ ما قلتَ للازدراء، ولـــولا خـــوف فـــسادهم لسكتُّ، وما تفوّهتُ في هذا الأمر وما تجلّدتُ، ولكن الآن أخافُ على الناس، وأخشى وسوسةَ الخنّاس، وإن بعض الشهادات أبلَغُ في الضرب من المرهفات، فأخاف أن يتجدّد الاشتعال مـــن كلمـــات "المنار"، ويسقط ميمُه ويبقى على صورة النار. وكنّا هزمنا العـــدا، وفرغنا من الوغى، ونابلْنا فكان لنا العُلى، وبذل الجهدَ كـــلُّ مَـــن رمى، حتى نثلت الكنائن، وفاءت السكائن، وركـــدت الزعـــازع، وكفّ المتنازع، وجعل الله الهزيمة على كلّ مَن بارى، وأهلَكَ مَـــن مارى. فالآن أُحْيِيَ اللئامُ بعد الممات، وشَـــدَّ "المنـــارُ" عَـــضُدَهم بالخزعبيلات، فأرى أنهم يتصلّفون ويستأنفون القتـــال، ويبغـــون النضال، ويخدعون الجهّال، ورجعوا إلى شرّهم وزادوا ضدًّا، بما جاء "المنار" شيئا إدًّا، وجاز عن القصد جدًّا، فأكبَرَ كَلِمَه حـــزبٌ مـــن العمين، وأين جهابذة الكلام كالسابقين، بل يتّبعون كلَّ ما يسمعون من الحاسدين المفسدين، وليس فيهم ذَواقُ العبارات المهذّبـــة، ولا الإعناقُ للوصول إلى المراعي المستعذَبة. لا يعلمون لطف الأساجيع

المستملَحة، ولا لطافةَ الكَلِم الموشَّحة. يقولون نحن العلماء، ولا يشعرون ما العلم وما الدهاء. وما كان لي حاجة إلى ذكر هذه القصّة، وإظهار هذه الغصّة، لِما لم يكنْ مدير "المنار" وحده بدعًا من المزدرين والمحقِّرين، بل تعوّدَ العدا كلُّهم بالتوهين، ليصدّوا الناس عن سبيل المهتدين، ويُلحقوهم بالمعتدين، وترى كثيرا منهم يوجدون في هذه البلاد، وتعرفهم بقترٍ رهقتْ وجوهَهم مِن ثور مواد العناد. يذكرونني كمثل ما ذَكَرَ، ويزدرونني كمثل ما احتقَرَ، فلا ألتفتُ إليهم ولا إلى أقوالهم، وأُعرِضُ عنهم وأقول: جهّال يصرخون بما ضُرِبَ على قُذالهم، وأيّ خير يُرجى منهم مع إصرارهم على ضلالهم؟ ولكنْ رأيت أن صاحب "المنار" عُظِّمَ في أعين هذه الأشرار، وأكبَرَ شهادتَه بعضُ زاملة النار، وكانوا يذكرونها بالعشيّ والأسحار، فبلَغني ما يتخافتون، وعثرتُ على ما يُسرّون ويأتمرون، وأُخبرتُ أنهم يضحكون عليّ وفي كل يوم يزيدون. فلما رأيت أنهم اغترّوا بلامِعِ القاعِ، ويَرامِعِ البِقاعِ، وزادوا في العناد والفساد، وخيفَ أن يعمّ فتنُهم هذه البلادَ، ورأيت أنهم يرونني بشزرِ عينيهم، ويصفّقون بيديهم، ويأخذونني كالتلعابة، ويُجَعْجِعون بي للدعابة، ويجعلون كلام "المنار" كحيلة للتجهيل والتخطية والاحتقار، شمّرتُ

تشميرَ مَن لا يألو جهادًا، ويضع فأسًا في رأس من رمى الجندل عنادًا.

وبالذي سبقتْ رحمتُه غضبَه، وفلّتْ رأفتُه عضبَه، ما كنتُ أظنّ في صاحب "المنار" إلا ظنّ الخير، وكنتُ أخال أنه قال ما قال مِن مصلحة لا من إرادة الضَير، ولكن ظهر عليّ بعد ذلك أنه ما كفَّ اللسان كما هو مِن سِير الكرام والطبائع السعيدة، بل أصرّ على الازدراء في الجريدة، فأكل الحاسدون حصيدة لسانه كالعصيدة، وتلقّفوا قوله وجدّدوا الخصومة بعد ما قطعوها كما هو مِن شِيم القرائح البليدة، وحسبوا كَلِمَه كالأسلحة الحديدة، وأشاعوها في الأخبار والجوائب الهندية، وكتبوا كلّ ما يشُقّ سماعُها على الهِمم البريئة المبرَّأة، وآذوا قلبي كما هي عادة الرُذَّل والسفهاء وسيرة الأراذل من الأعداء. وكانوا يمشون مَرَحًا بالخيلاء والامتطاء، كأنهم أُلبسوا من حُلل الحَبْرِ والوشاء، أو فُتِحت عليهم مدائن أو رُدَّ أحياؤهم الميّتون إلى الأحياء. وأحسستُ أن فتنتهم هذه تضرّ العامّة كالأغلوطات، ويعُدّون هذه الأقوال من الشهادات القاطعات، وكفى هذا القدر لخدع بعض الجهلاء، وإغلاطِ بعض البُلْهِ قليل الدهاء، فرأيتُ جوابه على نفسي حقًّا واجبًا لا يوضع وِزْره بدون القضاء، ودَينًا لازمًا لا يسقط حبّةٌ منه بغير الأداء، فإنّ دفع أوهام

العامة من واجبات الوقت وفرائض الإمامة. فقلّبتُ وجهي في السماء، وطلبت عون الله بالبكاء والدعاء، ليهديني إلى طريق إتمام الحجّة، وإحقاق الحق وإبطال الباطل وإيضاح المحجّة. فأُلقيَ في رُوعي أن أؤلّف كتابا لهذا المراد، ثم أطلب مثله من هذا المدير ومِن كلّ من نهض بالعناد من تلك البلاد. وكنتُ أُقبِل على الله كل الإقبال، وأسعى في ميادين التضرّع والابتهال، حتى بانت أمارة الاستجابة، وانجابت غشاوة الاسترابة، ووُفّقتُ لتأليف ذلك الكتاب، فسأرسله إليه بعد الطبع وتكميل الأبواب. فإنْ أتى بالجواب الحسن وأحسن الردّ عليه، فأحرقُ كتبي وأقبّل قدميه، وأعْلَق بذيله، وأكيل الناس بكيله. وها أنا أقسم بربّ البريّة، أؤكّد العهد لهذه الأَليّة. وإنّ كَلْمَ الأحرار بكلام، أشدُّ جرحًا من جرح سهام، بل هو أشقّ عليهم من قتلهم بلَهْذَمٍ وحُسام. وإنّ جراحاتِ السنان لها التيام، ولا يلتام ما جرح كلامٌ.

وأمّا ما ادّعى من المعارف والفصاحة، كما يُفهم من قوله بالبداهة، فهي مقالة هو قائلها ولا نقبله إلا بعد ثبوت النباهة. وما أتظنى أن يكتب "المنار" مِن معارف كمعارف كتابي، ويُري بريقًا كبريق ما في قِرابي.

ثم مع ذلك تناجيني نفسي في بعض الأوقات أن من الممكن أن يكون مدير "المنار" بريًّا من هذه الإلزامات، ويمكن أنه ما عمد إلى الاحتقار والنطح كالعجماوات، بل أراد أن يعصم كلام الله من صَغار المضاهاةِ*، وإنما الأعمال بالنيّات. فإنْ كان هذا هو الحق فلا شكّ أنه ادّخر لنفسه بهذه المقالات كثيرا من الدرجات، فإن حُبّ كلام الله يُدخِل في الجنّة، ويكون عاصمًا كالجُنّة. وأيّ ذنب على الذي سبّني لحماية الفرقان، لا للاحتقار وكسرِ الشان، ونحا به منحى نُصرةِ الدين، لا لَظَى التحقير والتوهين! وهل هو في ذلك إلا بمنزلة حُماة الإسلام، والدّاعين إلى عزّة كلام الله العلاّم، الذي هو مَلِكُ الكلام؟ واللهُ يعلم السرّ وما أخفى، ولكل امرئٍ ما نوى. ولكني مُعتذر كمثل اعتذاره، فإن الفتن قد انتشرت من أقواله وأخباره، فوجب أن أشمّر عن ذراعي لثأره، و لم يكن لي بدّ من أن أفضّ خَتْمَ سرِّه، واللهُ يعلم حقيقة نيّته وكيفيّة بريّتِه وبِرِّه. فإنْ كان نوى الخير فيما قال، فسيعتذر ولا يبتغي النضال، وإنْ كان قصد

* **الحاشية**: وأظن أنه استشاط مِن منع الجهاد، ووضعِ الحرب والسيوف الحداد. وإن الوقت وقت إراءة الآيات، لا زمان سلِّ المرهفات، ولا سيفَ إلا سيف الحجج والبيّنات، فلا شك أن الحرب لإعلاء الدين في هذه الأوقات، مِن أشنع الجهلات، ولا إكراه في الدين كما لا يخفى على ذوي الحصاة. منه.

التوهين والاحتقار، فسيقضي الله بيني وبينه ومَن ظلم فقد بار. وإني سأرسل كتابا إلى مدير "المنار"، ليفكّر فيه حق الإفكار، فإمّا اكفهرارٌ بعدُ وإمّا اعتذار، وإنّما هو لإظهار الحق معيار. فإنْ تنصّلَ "المنار" من هَفْوته، وتندّمَ على فَوهته، فما لنا أن نأخذه على عثرته. وإنْ لم يتوسّم قِرْنَ نضاله، و لم يطّلع على حُللي وعلى أسماله، فعليه أن يكتب كتابا كمثل كتابي وعلى منواله، ليحكم الله بيننا بعد بثّ الأسرار، ونَثِّ الأخبار. وأرجو من الله أن يبعث بعض أولي الأبصار، وفضلاء الديار، ليفتحوا بالحق بيني وبين مَن يرقص على "المنار"، وليتدبّروا كلامي وكلامه بالغور التام، وليستشفّوا جوهر الكلام، ويميزوا النور من الظلام.

وأعترف أن بعض أهل الجرائد أُعْطوا نُبَذًا من الفصاحة، ورُزقوا طرزًا من الملاحة، ولكن لا لإعلاء كلمة الله بل للاستماحة، ليحرزوا العين ولو بالكذب والوقاحة. فلا ننكر حذقهم بزرقهم وتَمَحُّلِ رزقهم، طورًا بالإطراء والأخرى بالازدراء، لينثالوا على أنفسهم الدراهم وليتخلصوا من اللَّأْواء. فلا شك أنّ لَسَنَهم من الولاية الشيطانية، لا من الكرامة الربّانية، ومِن حِيَل الاقتناء والاحتياز، لا من بدائع الإعجاز.

وإن بلاغتي شيء يُجلى به صدأ الأذهان، ويجلِّي مطلعَ الحق بنور البرهان، وما أنطق إلا بإنطاق الرحمان، فكيف يقوم حِذَتي مَن قيَّد لَحْظَه بالدنيا ومال إليها كل الميلان، ورضي بزينتها كالنسوان؟ أم يزعمون أنهم من أهل اللسان؟ سيُهزَمون ويولّون الدبر عن الميدان. ومَثلهم كمثلِ ظالِعٍ يريد ليدرك شَأْوَ الضليع، فلا يمشي إلا قدمًا ويسقط على الدسيع، أو كرجُلٍ راجلٍ وحيدٍ يسري في ليلة شابت ذوائبها، وانتابت شوائبها، واشتدّ ظلامها، وكثر هوامها، وهو ينقل تائهًا من واد إلى واد، وليس معه سراج ولا يسمع صوتَ هاد، وما رافقَه من رفيق وما تزوّد مِن زاد، ولا يجد خفيرا، ولا يرى بشيرا، ولا مصباحا منيرا، ورجل آخر أراد سفرًا بالخيل والرَّجّالة، فتدثّرَ فرسًا كالغزالة، وخرج من البلدة إذا ذَرَّ قرنُ الغزالة، مع رفقةٍ كالهالة، عاصمين من الضلالة، هل يستوي ذلك وهذا عند أولي النهى؟ وإن في ذلك لعبرة لمن يخشى.

فالحق والحق أقول، إن أهل الله يُرزَقون من ربّ العباد، ويُهدَون إلى طريق السَداد، ويُهيَّأُ لهم جميع لوازم الرشاد، ويُعطى لهم كلّ قوّة وجبت للعتاد، وكفتْ للارتقاء على المصاد، فما كان لأهل الدنيا أن يسابقوهم ويأتوا بأكبادٍ مثل تلك الأكباد، ولو استنّوا استنانَ الجياد، وكيف وإنّ قلوبهم منتشرة كانتشار الجراد، وإنّ ألسنهم على

النجاد، وأرواحهم في الوهاد. يقولون إنّا نحن من العرب، وغُـذِّينا مِن أمّهاتنا دَرَّ الأدب، وإنّا في مُلك النطق كأقيال وأبناءِ أقوال. فقد استكبروا بنفوسهم الأبيّة، وألسنتِهم العربيّة، وأوطنوا أنفسهم أَمْنَـعَ جنابٍ، وزعموا أنهم يفُلّون حَدَّ كلِّ ناب. وما عرفوا مِـن غبـاوة الجنان، أن أولياء الرحمن يُعطَون ما لا يُعطَى لأهل اللـسان، مـن المعارف وحسن البيان، ولا يُدرك براعتَهم غيرُهم مع جهدٍ مُعنِّـتٍ وصرفِ الزمان، وأنَّى لهم نصيب من هذا الشان، ولو أُوتوا بلاغـة سحبان، فإنهم ما صقلوا مرآة الإيمان، وما ذاقوا طعم العرفـان، ثم جمعوا بين الحمق والحرمان، وما استطاعوا أن يرجعوا إلى الـرحمن، بل صار شغل جرائدهم في سُبُلهم كالصَلات، فهم يحافظون عليـه كفريضة الصلاة. يشيعون الجرائد لقبض الـصِلات، واستنـضاض الإحالات، إلا قليل من أهل التقاة. وأكثـرهم لا يطـيرون إلا في الأهواء، وقُصَّ جناحهم من الطيران إلى السماء. يمشون في الظـلام المسبل، وتراهم لدنياهم في التململ، وتـصرخ أقلامهـم للقِـرى المعجَّل. يطلبون لَقوحًا غزيرةَ الدرّ، قليلة الضرّ. يستقْرون الصيد إلى السواحل، والأحبولة على الكاهل، ويقترون كلَّ شَجْراء ومَـرْداء، ويجوبون لها البيداء والصحراء. وما ترى أحدًا منهم قرير العين، إلا بإحراز العين، وتمضي ليلتهم جمعاء في هذه الخيالات، والنهار أجمع

في نحت العبارات. فما لهم وللروحانيين، والعباد الربّانيين، الذين يُعطَون عذوبة اللسان وطلاقة كالعين، ويُرزقون بصيرة القلب مع نور العين، ويفوزون من ربّهم بالسهمَين، ويرجعون بالغُنْمَين. وإنّهم قوم نزلوا عن متن ركوبة الأهواء، وحلُّوا فِناء الفَناء. جلّتْ نيّتهم، وقلّت غفلتهم. لا يرون في سبيل الله أثرًا إلا يقْفونه، ولا جَدْرًا إلا يعلونه، ولا واديًا إلا يجزعونه، ولا هاديًا إلا يستطلعونه. عُشّاق الرحمن، وفي سبيله كالنشوان. من ذا الذي يقرع صَفاتَهم، أو يُضاهي صِفاتِهم. ومَن جاءهم كدبير، فقد لُفِحَ ولا كلَفْحِ هجير. إنهم يسعون إلى الحضرة عند المشكلات، بدمعٍ أحرَّ مِن دمع المِقلاة. وإنّ مثلهم كمثل سرحة كثيفة الأغصان وريقة الأفنان، مثمرة بثمار الجِنان، ومن أتاها تُساقط عليه رُطَبًا جنيًّا فطُوبى للجوعان! إنهم قوم زَكّوا دِثارهم وشِعارهم، وخرجوا من أنفسهم وزايلوا وِجارَهم، ورحموا مَن جارَ عليهم وجارَهم، وأطفأوا نار النفس وكمّلوا أنوارهم. وأمّا نفوس أهل الدنيا فتُشابِهُ يومًا جوُّه مُزْمهرّ، ودجنُه مُكفهرّ، وتراهم عاريَ الجلدة مِن حُلل الاتّقاء، وباديَ الجردة من غلبة الفحشاء. قد اعتمّوا بِرَيْطة الاستكبار، واستثفروا بفُوَيْطة الخيلاء والفخار، فكيف يؤيَّدون من رب العالمين؟ بل وراءهم ضَفَفٌ وكرشٌ يدعونهم إلى الشياطين. يبكون أنهم أُهلكوا من

الشظف وصفرِ الراحة، وحَصَّهم جنفٌ وقشفٌ فما بقي معهم ذرّة من الراحة. ثم يقولون نحن سُراةُ أنديةِ الأدب، وحُماةُ لُسْن العرب. كلا.. بل ركدتْ ريحهم، وخَبَتْ مصابيحهم، وأجدبت بُقْعتُهم، وتخلّى بعد الإخلاء مُنتجعُهم ونُجعتُهم، ولن يُرَدّ إليهم جلالة شأنهم حتى يردّوا أنفسهم إلى الحضرة، ولن يغيّر ما بهم حتى يغيّروا ما في الطويّة. ولو أن ما في الأرض أنصارًا لهم ما كان لهم أن يُعجزوا المرسلين، ولو أتوا بالأوّلين والآخرين، مِن دون المتّقين. ألا ينظرون إلى الذين خلوا من قبلهم، هل هم غلبوا وأعجزوا رسل الله؟ أو كانوا من المغلوبين؟

ألا إن الأقلام كلها لله، وهي معجزة من معجزات كتاب مبين، ثم يتلقّاها المقرَّبون على قدر اتّباع خير المرسلين. فإن المعجزاتِ تقتضي الكراماتِ، ليبقى أثرها إلى يوم الدين. وإن الذين ورثوا نبيّهم يُعطَون مِن نِعمه على الطريقة الظلّية، ولولا ذلك لبطلت فيوض النبوّة، فإنهم كأثرٍ لعينٍ انقضى، وكعكسٍ لصورة في المرآة يُرَى، وإنهم اكتحلوا بمِرْوَدِ الفناء، وارتحلوا من فِناء الرياء، فما بقي شيء من أنفسهم وظهرت صورة خاتم الأنبياء، فكل ما ترون منهم من أفعال خارقة للعادة، أو أقوال مشابهة بالصحف المطهّرة، فليست هي منهم بل مِن سيدنا خير البريّة، لكن في الحُلل الظلّية. وإن كنتم

في ريب من هذا الشان، لأولياء الرحمان، فاقرأوا آية: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بالإمعان. أتعجبون ولا تشكرون؟ وترون صوركم في المرايا ثم لا تُفكّرون؟

ألا إن لعنة الله على الذين يقولون إنّا نأتي بمثل القرآن. إنه معجزة لا يأتي بمثله أحدٌ من الإنس والجان. وإنه جمع معارف ومحاسن لا يجمعها علم الإنسان. بل إنه وحيٌ ليس كمثله غيره وإنْ كان بعده وحيا آخر من الرحمان، فإن لله تجلّياتٍ في إيحائه، وإنه ما تجلّى من قبل ولا يتجلّى من بعد كمثل تجلّيه لخاتم أنبيائه. وليس شأن وحي الأولياء كمثل شأن وحي الفرقان، وإنْ أُوحِيَ إليهم كلمة كمثل كلمات القرآن، فإن دائرة معارف القرآن أكبر الدوائر، وإنها أحاطت العلوم كلها وجمعت في نفسها أنواع السرائر، وبلغت دقائقُها إلى المقام العميق الغائر، وسبَق الكلَّ بيانًا وبرهانا، وزاد عرفانا. وإنه كلام الله المعجز ما قرع مثله آذانا، ولا يبلغه قول الجنّ والإنس شأنا. فمَثل القرآن وغيرِ القرآن كمثل رؤيا رآها مَلِكٌ عادل رفيع الهمّة كامل الفهم والقياس، ورأى هذه الرؤيا بعينها رجل آخر قليل الفهم قليل الهمّة ومن عامّة الناس، فلا شكّ أن رؤيا الملِك ورؤيا هذا الرجل وإنْ كانت واحدة غيرَ مميّزة في ظاهر الحالات، ولكن ليست بواحدة عند عارفِ تعبير الرؤيا وذي الحصاة، بل لرؤيا

المِلك العادل تعبير أعلى وأرفعُ وأعمّ وأنفع، وهي للناس كلهم خير ومع ذلك أصحُّ وألمعُ، وأمّا رؤيا رجل هو من أدنى الناس، فلا يتخلّص في أكثر صورها من الالتباس، بل من الأدناس، ثم مع ذلك لا تجاوز أثرها من الأبناء والآباء، أو شرذمة من الأحبّاء. وإنّ ركْبَ هؤلاء الأغيار، يُنيخون بأدنى الأرض مطايا التسيار، وينتقلون من الأكوار إلى الأوكار، وأمّا خيل الفرقان، فيجوبون كل دائرة العمران، وهو كتاب تجري تحته بحار العرفان، ولا يطير فوقه طير التبيان. وما تكلّم أحد إلا ادّانَ مِن خزائنه، وأخرج مِن بعض دفائنه. وأرى كلَّ متكلّم صفرَ اليدين، مِن غير التطوّق بهذا الدَّيْن. وكلُّ غريم يجدّ في التقاضي، ويلجّ في الافتياد* إلى القاضي، وأمّا القرآن فيتصدّق على أهل الإملاق، وينزع عن الإرهاق، بل يُعطي سبائك الخِلاص، لأهل الإخلاص، ولا يمنّ على الغرماء بالإنظار، بل يُرغِّبهم في احتجان النُضار، ولا يأخذ سارقا، إنْ كان فارقًا●.

وإنّا نحن تلاميذ الفرقان، وأُترِعْنا مِن بحره بعد ما صرنا كالكيزان. فإنْ كان مدير "المنار" تزرَّى عليّ لهذا الاعتذار، فندعو

---

* *سهو على ما يبدو، والصحيح: الاقتياد (الناشر).*

● **الحاشية**: أعني مَن اقتبس من القرآن آية بصحّة النيّة، خائفًا من الحضرة، فلا إثم عليه عند عالِم النيّات، ذي الجود والمنّة. منه.

له لِغَيرته لله الغيورِ الغفّار، ولو قمتُ على مقامه، لقلتُ كمثل كلامه. ولعنةُ الله على مَن أنكر بإعجاز القرآن وجوهرِ حُسامه، وتفرُّدِ دُرّةِ كَلِمِه ونظامِه. ووالله إنّا نشرب من عينه، ونتزين بزينه، ولذلك يسعى على كلامنا نور وصفاء، وفي نُطقنا يبهر لمعانٌ وضياء، وبركة شفاء●، وطلاوة وبهاء. وليس عليّ منّةُ أحدٍ من غير الفرقان، وإنّه ربّاني بتربية لا يضائها◈ الأبوانِ. وسقاني الله به مَعينا، ووجدناه منيرا ومُعينا، فلا نعرف التهابا ولا حرورا، وشربْنا من كأس كان مزاجها كافورا.

وإن كلامي هذا ليس من قلمي السقيم، بل كَلِمٌ أُفصحتْ مِن لدنْ حكيم عليم، بإفاضة النبي الرؤوف الرحيم، فلا تجعلوا رزقكم أن تكذّبوها بل فكّروا كالزكيّ الفهيم. أم ظننتم أن الله لا يعلم ما تعلمون؟ أو لا يقدر على ما تقدرون؟ كلا، بل لا تعرفونه حق المعرفة وتستكبرون. واللهُ يجعل لمن يشاء بسطةً في العلم أفلا تُفكّرون؟ وقد كنتم على شفا حفرة فرحمكم الله، أفلا تشكرون؟

● *يبدو أن "و" سقطت هنا سهوا، والصحيح: وشفاء (الناشر).*

◈ *سهو على ما يبدو، والصحيح: يضاهيها (الناشر).*